دمعة على المغرد الصامت

قصيدة منثورة

ما اسرع ما تتمزق ثياب الورود ، وما اقسى القلوب الشديدة التأثر !

يمرُّ النسيمُ العليل على الازهار النضرة فتتمزق برطكِ جلابيبها وتنتثر وريقاتها . كذلك تكفي ملامسة الالم للنفس المنفردة ليثير منها الاشجان ويستقطر من محاجرها العبرات

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة الا بالزينة والغنى وارتفاع القدر

اما انا فلا هذه العطايا تغريني ولا تلك المواهب تستهويني . شيءٌ واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبهِ قسم كبير من الفكر وقسم اكبر من القلب . شيءٌ واحد ينبه اعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا — هو زهرة نادرة المثال شمس الذكاء والمعرفة تحييها ومياه العواطف العذبة تَرويها

ما اقسى القلب الحساس وما أليمهُ لاستحكام الجراح في ثنياتهِ !

***

طائر صغير نسجت اشعة الشمس ذهب جناحيهِ ونحتى الليل عليهِ فترك من سواده قبلة في عينيهِ . ثم سطت عليهِ يد البشر فضيقت دائرة فضائهِ وسجنتهُ في قفص كان عشهُ في حياتهِ ونعشهُ في مماتهِ

طائر صغير احببتهُ شهوراً طوالاً . غرَّد لكآبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فآنسها ، غنى لقلبي فأرقصهُ ، وقادم وحدتي فملأها الحاناً

امتزج ذكره بحياتي فحل عندي محل صديق لا تصلني بهِ اللغة ولا يقربهُ مني التفاهم الروحي ، بل يعزّزهُ لديَّ حضورهُ الدائم وان لم يقل هو بحضوري ، وصوتهُ الرخيم وان لم يفرد الا لان التفريد من طبعهِ ، وسرورهُ الذي لا يعرف الكآبة ، واصطبارهُ على ضيق الفضاء وقناعتهُ بما قدر لهُ من النور والهواء

لما أبكتني الآلام اريتهُ منديلي مبللا بالدموع فأعرض عني . انما تستدر الدموع ظلمة الاحزان كما يستدر الندى ظلام الليل ، وروح الاطيار شعاع مفرد فكيف يتفهم النورُ الظلام ؟

ثم اشرت بيدي الى الاثير البعيد لعلي ارى من طائري زفرة تنبئني عن لوعة في قلبه ، ولكنهُ اخذ يتنقل على قضبان قفصهِ غير مبالٍ بي ، كمن يقول: «النور لا ينظر الى الشمس والقلبُ لا يحدق في الروح لان كليهما واحد . انا لا انظر الى الاثير لاني نقطة منهُ . اني فيهِ وان بعدت عنهُ » كالشاعر الذي يظل محلقاً في سماء الخيال والمعاني وان وثق الناس من انهُ جالس بينهم مصغٍ الى احاديثهم »

واذ اتيتهُ بالازهار نازعة عنها ورقاتها فارشة بها مهبط القفص لعلي ارضيه شرع يدوسها استخفافاً متابعاً تغريدهُ ، كانهُ فيلسوف لا يكترث للصغائر وان كانت جميلة المظاهر ولا يهتم الا بما ينبهُ قوى البحث والتفكير في جنانهِ

في الصباح كنت افتح عيني فيستقبل استيقاظي بالغناء وتسيل موسيقى انغامهِ على قلبي فتذيبهُ وتسكرهُ معاً

وفي النهار كنت اجلس للدرس والتحبير فتشمئز نفسي احياناً من عبوس الكتب ، ويثقل يراعي في يدي كأنهُ صولجان تنازل عن ملكه ، فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد وتأتي جماعة طير من الخارج فتتوحد التغاريد عند نافذتي كما تمتزج الالحان في قلب الامواج . اذ ذاك تبتسم الافكار على صفحات الكتب امام ناظري ويتمايل قلمي تمايل الغصان قرب الغدير ، وتنجلي الغيوم عن صفحة نفسي وتطرب روحي

وفي المساء كان الكنار يصمت اجلالاً لقداسة الظلام فيخفي رأسهُ بين جناحيهِ ويجمد جمود المفكر . ساعتئذٍ تأتي بنات خيالي محاولة الشعر وورد الابتسام منوّر على شفتيها ومصباح الشعر متقد في يمينها . فتعقد حلقة وتدور راقصة حول احلامي ومنشدة اناشيدها بألحان سرية كأعماق النجوم — اناشيد عجيبة لم يسمعها الا خيال روحي المتهادي بين اولئك العذارى الراقصات ، ولم افهمها الا بحاسة سادسة تنبثق في قلب الشاعر في ساعات الوحدة والكآبة . بينما ملوك الجوزاء تطل من اعالي علاها ناظرة اليّ من نافذتي المفتوحة على آفاق الليل ، والكنار يرقبني بعينيهِ الخفيتين تحت جناحيهِ الذهبيين

***

والآن ، انظر الى القفص !

لقد صمت الطائر الغرّيد وجمد الشعاع المحيي فلا ترى في القفص الا قليلاً من الشمس المائتة ! مات الصغير المغرد ، مات صغير حشاشتي !

مات عند بزوغ الفجر وقبل انقضاء الربيع ، ولا يبقى في خاطري الأثر من ذلك المحن المتواضع البديع !

شعاع ذهبي اطلّ حيناً واختفى في كبد الآفق ،
ابتسامة لطف اشرقت وما لبثت ان توارت في أخفية الظلام ،
نور فكر ضاء ثم اضمحلّ في لجج العدم ،
وردة اثير تنفست فعطرت وأسكرت ثم ذبلت ،
نغمة حب تموّجت ساعة ثم تلاشت في هاوية السكينة ،
صديق صغير غرّد فأطربني وسكن في جواري فآنسني ، ولما مزّق قلبي العالم بشرّه وصغائره شفى طائري فألهاني قبح التباحة وجعلني افكر في كل حسن سهي
هذه قيثارتي فقدت احد اوتارها فناحت بالرغم انغامها ،
فما اقسى القلوب الشديدة التأثر ، وما امرّ الجرح الصغير الذي يفتح جراحات كبيرات ! !

***

سرّ الوجود وسر الفناء من يستطيع ادراكهما ؟

في كلّ ذرة من ذرات الكون ظمأ لارتواء خمرة الحياة وشوق مبرح للنموّ وبلوغ اكمل الحالات الممكنة . فما غاية هذا الشوق ، ولماذا وجد ذلك الظمأ ، إذا كان الفناء كعبة الكمال ونهايته ؟

أتلاشى ما كان في طائري من النور والبهاء ؟ أضاعت نفسه الصغيرة الخلوة في الاثير كما امتزجت تغاريده بامواج الهواء وعناصر جسمه بالتراب والماء ؟ أم هو يحفظ جوهر ذاتيته ويظل هو هو في مجاهل القضاء ؟

على مَ وجد ولماذا قضى ؟

أهذا الفناء ترقّى نوعه حتى صار طائراً غريداً ؟ أعاش يوماً وكان من نصيبي لكي يطربني ثم يوحشني ، يزيل كآبة نفسي حيناً ثم يتركني حائرة في امره وأمري ؟

أين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض ؟

وانتم أيها الموتى ، أضياراً كنتم أم بشراً ، ألا تنطقون مرة واحدة لكي تقضوا الينا بما طوي من الاسرار وراء حجب الردى ؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الاولى من اللغز الازلي السرمدي الكامن في صمير الوجود ؟ (يتبع)